كتاب
غزوات عروج وخير الدين

اعتنى بتصحيحه وتعليق حواشيه

نور الدين عبد القادر

طبع على ذمة المطبعة الثعالبية والمكتبة الأدبية

لصاحبهما ردوسى قدور بن مراد

بنهج مصطفى إسماعيل عدد ١ بالجزائر

١٣٥٣ - ١٩٣٤

حقوق الطبع محفوظة

بابا عَرُوج

خير الدين باشا

تنبيـــــه

الحمـــد لله وحده

من الآثار العربية القليلة المتعلقة بتاريخ مدينة الجزائر التى وصلت الينا ولم تأت عليها يد الدهر « كتاب غزوات عروج وخير الدين » فإنه مجموع نفيس فى ذكر أسباب استيلاء الأتراك على الجزائر وذكر الحروب والشدائد التى عانوها فى ردّ هجمات بعض الأجانب على هذا الوطن . ومما لاينبغى للقارئ الكريم أن يغفل عنه سيرة خير الدين فإن هذا الرجل له شأن عظيم فى تاريخ بلادنا ولهذا قد اعتنى به كثير من مؤرّخى الغربيين منذ زمان مديد . وها نحن اليوم تيسر لنا بحول الله أن نبرز لقرّاء العربية كتاب الغزوات ـ الذى طالما تمنى بعض المستعربين طبعه ـ حسب النسخة المحفوظة بالخزانة الدولية بالجزائر تحت عدد ١٦٢٢ الجديد وعدد ٩٤٢ القديم فإنها نسخة صحيحة تغنى فى الجملة عن غيرها ولو كان فى الحقيقة يسرّنا أن نقابلها بنسخة أخرى يمكن الاعتماد عليها . وهى حسنة الخطّ جداً والبياض فيها كاد لا يوجد ولم نحتج الى النسخة الأخرى السقيمة الحافلة بالأغلاط والإغفال لعدة صفحات الموجودة أيضاً بالخزانة السالفة الذكر عدد ١٦٢٣ الجديد و ٧٧٤ القديم إلا فى مواضع يسيرة تعد فى الأصابع . وقد نعترف أننا أصلحنا بعض الأخطاء ترجع إلى الصرف أو النحو بدون تنبيه عليها فى الغالب لوضوحها وعدم الفائدة فإنّ الكاتب كثيراً ما يستعمل الجمع عوض المثنى ولغة أكلونى البراغيث والمجرد عوض المزيد كحرق بدل أحرق أو العكس كأعرض بدل عرض . فإنّ ذلك لم ننصّ عليه دفعاً للسآمة . وأشرنا إلى كل ما فيه ريب تأدية للأمانة التاريخية الواجب مراعاتها . ونشرنا المتن كما هو مع إثبات عبارات اللعن التى نتحاشى عنها اليوم غير أنّ ذلك كان عادة جلّ كتاب تلك العصور .

كتاب الغزوات ليس فيه تبويب ولا عناوين بيد أنّ الكاتب يستعمل أحياناً بعض العبارات مكتوبة بالحبر الأحمر كرجعنا إلى خبر . . . ويعود الخبر إلى . . . وما أشبه ذلك . والعناوين التى زدناها أردنا بها تسهيل المطالعة والبحث . المؤلف مجهول الاسم وكان يعيش فى القرن العاشر الهجرى والسادس عشر المسيحى كما يلمع اليه فى التعليق . وكتابته سهلة واضحة وتعبيره حلو دال على سذاجة صاحبه ولا بأس إن قلنا إنّ إنشاءه مما يجمل أن يتخذ قدوة ومثالا فى الأسلوب البسيط المؤدى للمقصود . والظاهر أنّ هذا الكتاب كان باللغة التركية ثم ترجم إلى العربية كما هو مذكور فى نفس النسخة وسيقف عليه المطالع فى آخر الغزوات إن شاء الله . وعلى كل حال فإنه يوجد نسخة خطية باللغة التركية بعنوان « غزوات خير الدين باشا » محفوظة بخزانة السراية القديمة بالإستانة منسوبة لسنان شاوش ولعلها هى الأصل والله أعلم . وأردفنا الكتاب بتعاليق كثيرة تشرح بعض الألفاظ والوقائع باختصار . ألهمنا الله إلى ما فيه الخير والسداد . والسلام

أمره . فمضت مدة وهو كذلك فطلب عروج من حارسه أن يذهب به إلى مالكه ليتحدث معه فى شأن خلاصه . فذهب به إليه . فلما وصله قال له عروج أيها المولى ما مرادك بهذا التضييق الذى ضيقت به على وأى ذنب لى فى ذلك . فأجابه أنا فعلت بك ذلك لكونك لم تصدق معى وسأضاعف عليك من ذلك وأذيقك من ألوانه مالم يسمع به أحد . فقال له عروج بأى سبب أيها المولى تعذّبنى . فأجابه قائلا إنى سمعت أن أخاك قدم إلى بدرون بمال كثير برسم فديتك فبعثت إليه وثنيت عزمه عن ذلك فلذلك ضاعفت عليك العذاب . فقال له عروج أيها المولى ممن سمعت هذا الخبر وإنما هو زور وافتراء وإن كان مرادك فى بيعى فانا أشترى منك نفسى بالثمن الذى تريد . فقال له أى ثمن تعطى فى نفسك . فأجابه عروج أبذل لك فى نفسى إقليم الرومالى كله ونصف استانبول وذلك قليل فى خلاصى من يديك . فلما سمع منه هذه المقالة قال له ياشيطان الترك معى تتكلم بهذا الكلام وتواجهنى به أتستهزئ بى فقال له عروج رئيس أنت تكلمت معى بكلام لا يعقل فأجبتك بمثله فاغتاظ عليه . فقال له عروج يامولاى الناس يقولون فى المثل السمك الذى لم يصد كثير فى البحر وأنتم أخذتمونى بجميع ما احتويت عليه من المتاع فأى مال بقى لى حتى أخلص نفسى به فكيف تكلفنى ما لا أطيقه والناس يقولون فى المثل إن الدجاجة إذا مسكت تضطرب وتسعى فى خلاص نفسها بذلك أو ليس لى قوة الدجاجة وإذا قد وصلنا إلى هذا المقدار الذى تريده منى فأنا لست بابن ملك حتى أبذل لك جميع ماتطلبه منى أعطيك على قدرى . وهذا المقدار العظيم الذى تكلفنى به آلله أمرك به أم هو رأى من عندك . فلما سمع اللعين هذه المراجعة منه غضب غضبا شديدا ودفع فى صدره وصار يدمدم كالرعد وضاعف عليه العذاب ورده إلى مكانه . وكان فى ذلك الزمان فى مدينة أضاليه أخ للسلطان سليم يقال له بلسان الترك

قرقود وكان له اعتناء تام بفداء أسارى المسلمين وتخليصهم من يد الروم. فبعث أحد خواصّ خدمه إلى جزيرة رودس برسم فداء الأسارى على جرى عادته وأعطاه مقدار فدية أربعين أسيرا . وكان ذلك عادته كل سنة . فبعد فدائهم عين صاحب الجزيرة مركبا يوصلهم إلى بلادهم . وكان من جملة خدام المركب عروج رئيس تحت حوطة النصارى . فلما كان فى أثناء مسيرهم فى البحر اجتمع عليه النصارى أهل المركب واستمالوه إلى دينهم وكان رجلا كامل الايمان صحيح الاسلام. فغضب من ذلك وقبح دينهم وتبرّأ منه . فقالوا والله إن كان نبيك حقا قل له يخلصك من أيدينا . فقال لهم يخلصنى إن شاء الله . فاستهزؤوا به . فعند ذلك أخذ فى الدعاء والتضرع والابتهال إلى الله عزوجل فى كشف ماحلّ به من هذه الكروب وتمادى بهم السير إلى أن دخلوا بعض المراسى فأرسوا بها مركبهم وبعثوا اقاربهم بقصد صيادة السمك . فهال عليهم البحر وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم واشتغل كل واحد من أهل المركب بنفسه . فعند ذلك انتهز الفرصة فى خلاص نفسه وحاول كسر القيد الذى عليه فتأتى له ذلك بتقدير العزيز العليم . قال الله تعالى ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره الآية . وقال صلى الله عليه وسلم اشتدّى أزمة تنفرجى . فبدا له أن يلقى بنفسه فى البحر لينجو بذلك . فألقى نفسه وساعده الله سبحانه وتعالى على الخلاص . فوصل إلى الساحل وذهب إلى قرية من قرى النصارى كانت قريبة من تلك المرسى وكان من عادة أهل هذه الجزيرة إذا وصل إليهم أسير من أسارى المسلمين آووه وأخفوه عن الطلب . فقصد دارا من ديار تلك الجزيرة . فاجتمع عليه أهل تلك الدار وتكلموا معه . فأجابهم بلسانهم فاستظرفوه . ولما سكن البحر عن أهل المركب وأقلعت الأمواج عنهم افتقدوا عروجا من بينهم فلم يجدوه . فحمم رئيس المركب بعقله أنه ذهب إلى تلك الجزيرة . فبعث الطلب فى أثره وهم ثلاثة من زعماء أهل المركب . فقصدوا الدار التى بها عروج . فلما دخلوها وجدوه بها وخيل لهم أن جماعة من المسلمين

جلوس معه فى تلك الدار . فجعلوا يوبخونه على فراره . فقال لهم فى محاورته إياهم أنا لم أفر بل أخذت الإذن من رئيس المركب مع من أخذ . ألم ترونى حين نزلت . اذهبوا إليه وأعلموه بخبرى فإن كنت كاذبا فها أنا بين أيديكم فافعلوا بى ما شئتم . فأبهتهم وخلط عليهم ثم قالوا له من هؤلاء الذين معك . فقال هذا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه . فلما سمعوا منه ذلك رجعوا إلى مركبهم وذهب عروج قاصدا بلاد المسلمين وسار خبر خلاصه إلى جزيرة رودس واستفاض بها . فسمع بذلك الرومى الذى بعثه أخوه خير الدين لأجل خلاصه . فذهب مبشرا إليه وأعلمه بكيفية خروج أخيه من ربقة الأسر . فلم يصدق خير الدين بذلك فحينئذ أقسم الرومى بدينه على صحة ما أخبر به . فبحث عن ذلك فوجده صحيحا فحمد الله وأثنى عليه . فانتقل إذ ذاك خير الدين من بدرون ورجع إلى جزيرة مدلى واشتغل بالتجارة .

رجعنا إلى خبر عروج وكان قصد فى سفره مدينة إضالية فلما وصلها واستقرّ بها واستراح من وعثاء السفر صادف بها رجلا له جفن اسمه على رئيس يريد السفر إلى مدينة مصر فالتمس منه أن يجعله أحد خدام المركب ويسافر معه إلى مصر فأنعم له بذلك لما تفرس فيه من النجدة بركوب البحر والرجال تحرص على مثل هذا . فسافروا إلى مصر . فلما استقروا بها وجدوا مراكب لصاحب مصر ـ وكانت فى ذلك العهد فى يد الجراكسة ـ برسم السفر إلى موضع تقطع منه الخشب لإنشاء السفن . فأعطى صاحب مصر مركبا لعروج من تلك المراكب يكون رئيسا فيه ومقدما على جماعته . فلما انتهوا إلى ذلك الموضع واستقروا به هجم الإفرنج عليهم بجملة وافرة من مراكبهم . فأحرقوا مراكب صاحب مصر وفر المسلمون بأنفسهم . فذهب من جملتهم عروج إلى مدينة أضالية وكان استقرار أخى السلطان سليم بها المسمى قرقود كما قدمناه . فلقيه عروج وأعلمه بكيفية أحواله وما وقع له من الأسر وكيف خلصه الله منه . فظهر له منه مخايل النجدة والشجاعة . فأمر له بجفن فركب فيه

برسم الغزو إلى ناحية رودس فاستحذر تجار النصارى حذرا شديدا فذهبوا إلى عظيم رودس ورفعوا شكواهم إليه قائلين لا نقدر على السفر برسم التجارة من سبب هذا الرجل الذى يقال له عروج فإنه قطع البحر علينا . وبلغ الخوف بهم إلى أن هرب أهل الحراسة من الأبنية التى على سواحلهم . فلما سمع رئيس الجزيرة هذا الكلام بعث فى أثره عدة سفن ليتمكنوا منه . فبينما هو فى بعض المراسى إذ هجم عليه النصارى بمراكبهم . ففرّ فى البر مع من معه وترك لهم الجفن فرجع مرة أخرى إلى أضالية . وكان قرقود المذكور ولى على مغنيسية . فسمع بذلك عروج فسار اليه بمغنيسية وكان لقرقود بعض من خواص أصحابه اسمه بلسان العجم باس باى رافق عروجا فى سفره إلى مغنيسية فأهدى إليه عروج غلامين من النصارى وأخبره بما جرى عليه من مراكب النصارى وكيف أخذوا جفنه فرقّ له باس باى المذكور ووعده وعداً جميلا . وقد كان عروج حمل معه أربعة من غلمان النصارى برسم الهدية إلى قرقود فوصل إلى حضرته بمغنيسية وأوصل اليه الهدية التى كانت برسمه فوقعت منه أحسن موقع وأمر فى الحين أن يكتب إلى قاضى إزمير أن ينشأ له جفنا برسم الغزو . فوصل عروج إلى إزمير وأوصل الكتاب إلى القاضى فامتثل الأمر وأمر بانشاء الجفن على الفور . وقد كان باس باى المذكور قال له إذا تم الجفن الذى أمر لك به مولانا فسر به إلى فوجة وأقدم إلىّ بمغنيسية فلقى باس باى وأعلمه بتمام الجفن وتركه إياه بفوجة كما رسم له . وقد كان عند باس باى جفن فأمر بعمارته ليرافق عروجا فى السفر ورسم على أهل جفنه المذكور أن لا يخالفوا أمر عروج ولا يفارقوه فرجع عروج إلى فوجة . وقد كان باس باى أوصاهم أن يذهبوا فى سفرهم إلى ناحية بلاد النصارى فاستعانوا بالله تبارك وتعالى وذهبوا فى سفرهم وأخلص عروج نيته فى الجهاد بائعاً نفسه من الله تعالى هو ومن معه من المسلمين عملا بقوله تعالى « إن الله

اشترى من المؤمنين أنفسهم » الآية . فقصد إلى بلاده جزيرة مدلى ولقى أخويه إسحاق وخير الدين فاستبشرا بلقائه وفرحا به فرحا شديداً وكذلك كافة أصحابه ثم إنه ودّعهم وذهب برسم السفر على نية الغزو . فذهب إلى ناحية من بلاد النصارى يقال لها بولية فلقى جفنين من أجفان النصارى فوقع بينهم قتال عظيم فظفره الله بهما واحتوى عليهما بما فيهما فرفع الأسارى والمتاع منهما وأحرقهما ووجد فيهما من المتاع شيئاً لا يسعه الحصر . فبدا له أن يسافر إلى ناحية الروملى بنية الغزو أيضاً فاجتاز على جزيرة يقال لها اچروبز وكان بقربها مرسى يقال لها تزد فأرسوا على البعد منها . وكان بعض أجفان النصارى بداخل المرسى فهال عليه البحر وكثرت عليه الأمواج فأراد الدخول إلى المرسى فحال النصارى بينه وبين الدخول بآلاتهم الحربية من المدافع فتكلم معهم ما السبب حتى تمنعونى من الدخول فإنى لم آت لحربكم وإنما أردت الإرساء بقربكم حتى يذهب هيجان البحر وأذهب إلى حال سبيلى فلم يلتفتوا إلى قوله وصمموا على منعه من الدخول . فقال لجماعته البحرية على سبيل التحريض لهم والاستخراج لغزوهم أنتم أتيتم برسم الجهاد والعدوّ مقابل لكم فأخلصوا نيتكم لله تعالى وتوكلوا عليه فقد قال سبحانه وتعالى « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين » فحمى القوم عند ذلك ونهضوا لمحاربة عدوهم بالعزائم الوقادة ورفعوا ألوية الجهاد وقصدوهم ورفعوا أصواتهم بالتكبير ولصقت أجفان المسلمين بأجفان العدو ووقع بينهم قتال عظيم فنصر الله حزبه وأيد أولياءه وأظفرهم بعدوّ الدين فغنموا أجفان العدوّ واحتووا عليها بما فيها وعزم على الرجوع على جزيرة مدلى بهذه الغنيمة الهائلة وفى أثناء ذلك وقع بين السلطان سليم وبين أخيه قرقود بعض ما يقع بين الملوك من العداوة والمنافسة فسمع عروج ما وقع بينهما من الشنآن فخشى على نفسه من السلطان سليم لأنه كان من أصحاب أخيه فثنى عزمه عن الجزيرة وقصد فى سفره مصر فلما وصلها وفد إلى سلطانها بهدية عظيمة مما احتوى عليه من